مجلة النص
المجلد 10 / العـدد:02 (2024)، ص 172- 192

نقد التأويل المفتوح عند مصطفى ناصف

A criticism of open interpretation of Mustafa Nassif

سناء حركاتي [1]*، شراف الدين شناف [2]

[1] جامعة باتنة 1، الجزائر، sana.harkati@univ-batna.dz

[2] جامعة باتنة 1، الجزائر، charafbatna@yahoo.fr

مخبر الشعرية

تاريخ الاستلام: 2023/ 03/02 تاريخ القبول:01 /01 /2024 تاريخ النشر:2024/01/26

ملخص: عُرف التأويل كأداة لاستنطاق النّصوص للوصول إلى المعنى الخبيء ومقاربة الحقيقة. وقد عرفه القدامى والمحدثون، فاختلفوا في إسقاطه على النّصوص بين التّضييق والتّوسيع، وللحفاظ على النّص وحرمته فقد تبنّى بعض النّقاد نوعا من التّأويل المعتدل أو المسئول ونظّروا له، ومن النّقاد العرب الذين مارسوا التّأويل وجعلوا له حدودا النّاقد "مصطفى ناصف"، الذي بنى تأويله على أسس أغفلها غيره؛ كالحوار الفعّال مع النّص والتّفاعل الرّوحي بين الذّات القارئة والمقروء. وهذا ما يضمن للنّص الخلود والثّراء الفني. ومن النتائج التي توصلنا إليها: ▪ التأويل الرّوحي الشامل الذي تبنّاه "مصطفى ناصف' ‘جامع بين المادة والروح، محافظ على حرمة النّص الذي يحاول استنطاقه من خلال حدود. ▪ عند ممارسة ناصف للتّأويل لم يهمل الجانب التطبيقي، فكانت القراءة الثانية "لرسالة الغفران" مختلفة عن سابقيه.

كلمات مفتاحية: تأويل؛ نص؛ تفسير ؛ معنى؛ حقيقة.

Abstract: Interpretation was known as a tool for interrogating texts, in order to reach the hidden meaning and approach the truth. The old and the moderns knew it, and they differed in its projection of texts between moderation and excess. In order to preserve the text, some critics have adopted a moderate type of interpretation and theorized for it, and among them: Nassif, who built his interpretation on foundations; Such as effective dialogue with the text and spiritual interaction between the reciter and the reciting subject. Among the results we reached: ▪ The interpretation adopted by "Nassif" combining matter and spirit, preserving the sanctity of the text that he is trying to interrogate through limits. ▪ He did not neglect the practical side, so the second reading of the "Risala Al-Ghufran" was different from the previous ones.

Keywords: Interpretation; Text; Explanation; Meaning; Truth.

---

* **المؤلف المرسل**

1. مقدمة :

يُعَدُّ التّأويل من أهم الأدوات التي تساعد على استنطاق النّصوص، وقد ظهر عند محاولة الإنسان فهم النّصوص الدينية، القرآن الكريم عند المسلمين، والنصوص المقدسة عند الغربيين. ثم تعدّى حدود النّصوص الدينية إلى النّصوص الإبداعية.

وقد عرفه العرب القدامى قبل المحدثين، واستعملوه في مجالات مختلفة. فهو متعدد المدارات، ومختلف المحمولات، وحتى المفاهيم، والأهم بالنسبة لنا هو علاقة العقل العربي بنظرية التأويل، وكيف وظّفها في قراءة النصوص بحثا عن المعنى فالحقيقة.

كما أنّ النّصوص التراثية أو الحداثية، تحتاج لتجديد قراءتها وفهمها حتى تضمن الخلود، والثّراء الفني، والبعد عن الركود والجمود. والتّفاعل بين النّص والمؤول، هو الذي يجعل الغوص إلى أعماق النّص ممكنا، بدءا بالقراءة الشارحة، فهي عتبة لا بد منها ولا يكتمل الفهم دونها. وصولا إلى قراءة ثانية عميقة لا تقف عند المعنى، وإنما تبحث عن معنى المعنى.

وبما أنّ العملية الإبداعية لا تكتمل إلا بثنائية الكتابة والقراءة، فإنّ النّص المكتوب يحتاج لقارئ يبحث بين ثناياه عن الخفي والخبيء والمسكوت عنه.

والتأويل كظاهرة ملازمة للنّصوص، لبيان المعجز منها والخفي فيها، تعددت مفاهيمه ووجوهه وفقا للمجالات التي استعملته. فتتعرض للتضييق حينا، والاتساع حينا، وهكذا ظهرت مشكلة الحفاظ على التوازن، والبعد عن العبثية والفوضى القرائيّة.

ومن النّقاد العرب الذين مارسوا التّأويل ونظّروا له، النّاقد المصريّ "مصطفى ناصف". وقد تبنّى مبدأ الحوار الفعّال في قراءته للنّصوص، وعكف عليها محاولا استنطاقها بعقل متشرّب للفكر العربي والفكر الغربي على حد سواء–ولمعرفة موقفه من التأويل المفتوح نطرح مجموعة من التساؤلات:

- ما مفهوم التّأويل؟
- ما هي العلاقة بين التّفسير والتّأويل؟
- ما هو مفهوم النّص عند "ناصف"؟
- ما هي حدود التّأويل؟
- ما هو التّأويل الرّوحي الشامل؟
- كيف قارب "ناصف" النّصوص متقصيّا للمعنى من خلال تأويل روحي شامل؟

2.مفهوم التأويل:

1.2. لغة: وذكر في المعجم الوسيط أنّ التّأويل "يعود إلى جذر "أول"، آل–يؤول–أولا، أي صار إلى كذا، ومنه أوّل الشيء إليه... أرجعه، والمآل أي العاقبة والمصير، وأوّل الكلام فسّره... وتأوّل فلان الأمر توسمه وتحرّاه"(1)

أي أنّ التّأويل من خلال جذره اللغوي يحتمل أكثر من معنى، كالرجوع أو الإرجاع، والعاقبة أو المصير، والتفسير، ويتوسّم المعنى ويتحراه، يحاول الوصول إليه أو مقاربته.

فتعدد المدلولات اللغوية يفتح المجال أمام تأويل مفتوح

2.2. اصطلاحا: صرف اللّفظ عن معناه الظاهر إلى معنى آخر غير متبادر. عرفه "عبد القاهر الجرجاني" بقوله: "يدلّ اللفظ على معناه الذي يوجّهه ظاهره، ثم يعقل السّامع ومن ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا".(2)

أما السيد الشريف الجرجاني فقد عَرَّفه في كتابه "التعريفات": "التأويل في الأصل الترجيح، وفي الشّرع صرف اللّفظ عن معناه إلى معنى يحتمله"(3)، وبالتالي فهذا الاستعمال الاصطلاحي للتأويل دال على أنّه بحث دؤوب عن الحقيقة أو المعنى، على أن يلتزم المؤوّل ظاهر النّص لبلوغ باطنه مع مراعاة اللغة وخصوصياتها.

والأهم في التّأويل هو البحث بين السطور عن الخفي وذاك هو مدار التأويل "فمدار التأويل هو ما يكمن خلف الظاهر القاطع، ذلك الفراغ الخلاّق أو اللاوجود، هو عنصر أساسيّ من عناصر الثقافة الإنسانيّة يجب دائما أن نتجه إليه. المسكوت عنه لا يقل أهمية بأية حال عما ظهر وحسم أمره"[4]

فالتّأويل لا يستقيم إلا إذا كان مؤسسا على علاقة المستوى الظاهر للنّص بالمستوى الباطن، والحفر في الأعماق لفك طلاسم النّص ومقاربة الحقيقة.

والتّأويل "بمقتضى هذه النظرة، لا يقوم على مقولات بل يقوم على ظهور الشيء لنا. ومغزى ذلك أنّ الإنسان يدرك بطبيعته، فكرة امتلاء الوجود، لكن هذا الإدراك ليس ثابتا في قوالب أو مقولات. إنّما الفهم صناعة التجربة"[5].

فالتّجربة والحوار والصبر والتأمل، أدوات منهجية يستعملها ناصف لتأويل النّصوص وإدراك مكنوناتها.

كما يرى "مصطفى ناصف" أنّ التأويل "عند العربي قبلة المجتمع كله. المجتمع باحث عن تأويل: لأنّه باحث عن نفسه فيم كانت؟ وإلام صارت؟ وإلام يكون مستقبلها؟"[6] بممارسة الفهم المتجدد لذاته والعالم من حوله.

عند ممارسة "ناصف" للتأويل نجده يلج أولا من باب التفسير أو القراءة الظاهرية للنّص، ثم يغوص إلى الأعماق باحثا عن المعنى ومعنى المعنى.

3. بين التّفسير والتّأويل:

إن كان تفسير النّصوص خاضعا للمظهر المحسوس من النص–قراءة سطحية–وأريد به الفهم المنظم أو استنطاق المترادفات واستبدال كلمة بكلمة دون مراعاة للمستويات اللغوية الموظفة "الاستبدال هو اعتناق ما سمّاه الأجداد تحصيل حاصل، إنّنا مسحورون بالاستبدال أو مسحورون بالترادف، ننبهر جدا بإعادة التعبير عن شيء واحد دون أن ندري"[7]، ولكن

بالاعتماد على أداة دون بقية الأدوات والمعارف لن نتوصل إلى الفهم الجيد للنّص القرآني أو غيره من النّصوص، التي تحتاج للنّحو والصرف والبيان أيضا.

كما نجد أهل البيان يرون أنّ التفسير يخص الألفاظ، ويرتبط بالمعنى اللغوي الحقيقي.

أما التأويل فهو أوسع من التفسير لأنّ التّفسير استعماله خاص بالألفاظ ومرادفاتها، والتأويل أكثر استعماله للمعاني، فهناك توفيق بين ظاهر النّص وباطنه.

كما أن التأويل هو رجوع بأغراض النّصوص إلى مصافها أو منطلقاتها الأولى (حقيقتها)، وهو خاضع للاستقراء ويقوم على تغليب القرائن والحفر في الأعماق بخلق جسر بين الذّات والنّص لفهم طلاسمه، وهو حقل الدلالات المحتملة بتوجيه فعل القراءة بالدليل إلى وجه من أوجهها.

"فالنّص يحتاج إلى قراءة مستمرة. والقراءة المتأخرة تعطي ما عجزت عنه القراءة الأولى"[(8)]

أي أنّ التفسير يمثل القراءة الأولى للنّص لاستشراف المعنى الأولي، أما التّأويل فهو عملية متجددة من القراءات ومناوشة النّص أو الحفر فيه وفق دلائل وأدوات لفهمه ومقاربة أغراضه، فهما وجهان لعملة واحدة تهدف إلى محاورة النّصوص، والعملية بينهما تكاملية.

في حين إذا عدنا إلى التراث النقدي العربي نجد اختلافا في استعمال هذين المصطلحين:

- أهل التصوف وأهل التشيع فصلوا بين ظاهر النّص وباطنه، فوسَّعوا المسافة بين التفسير والتأويل، بأن جعلوا الأول قرين الظاهر والثاني قرين الباطن، والأول يخص عامة النّاس أما الثاني فهو خطاب الخاصة.

- أهل البيان قلّصوا المسافة بينهما، فالتفسير يخص الألفاظ، أما التأويل فيهتم بالمعنى العام للعبارة، وربطوا الأول بالمعنى اللغوي الحقيقي والثاني بالمعنى المجازي.

وإن كان النقد العربي قد تراوح في استعماله للمصطلحين بين الترادف تارة والاختلاف تارة أخرى، فإنّ الناقد "مصطفى ناصف" ميّز بينهما على سبيل الاختلاف، فالتفسير غير التأويل، فالأول "ضرب من الأخذ بالظاهر، يتماشى المُفَسر مع أقرب ما يتبادر إلى الذهن من العبارات، فهو يأخذ ما نسميه السطح الظاهر للأشياء... أما في حالة التأويل، فالمؤول يبحث في شيء آخر وراء هذا الظاهر، وهو لا يكتفي بالمعنى السطحي المباشر، بل يرى أنّ المعنى السطحي على خلاف ذلك لا يكفي ولا بد من الرجوع إلى مصدر آخر"(9)

ولعل هذا الاختلاف بين المصطلحين عند "ناصف"، يقوم على مفهومه للنّص، فالنّص "منيع الجانب... يحتاج إلى حفر في طبقاته..."(10) ورغم تمييزه بين المصطلحين، إلا أنّه لا يلغي التفسير وإنّما يعتبره العتبة الأولى أو المفتاح الأول للتأويل "فلا يجوز التّهاون في حفظ التفسير الظاهر، بل لا بد منه أولا، إذ لا يطمح في الوصول إلى الباطن قبل أحكام الظاهر"(11)

فقد اعتبر "مصطفى ناصف" التفسير بمثابة العتبة الأولى للممارسة التأويلية، لأنّ النّص منيع يحتاج للآليتين معا، بدءا بالتفسير وصولا للتأويل، فهو الأكثر ملاءمة لطبيعة النّص الأدبي، فهل يعني هذا أنّ مفهوم النّص عند "مصطفى ناصف" هو الذي حدّد منظومته الاصطلاحية؟ وما طبيعة العلاقة بين مفهومه للنّص والتّأويل وحدوده؟

4. مفهوم النّص عند "ناصف" وعلاقته بالتأويل:

إنّ النّص من منظور الدكتور "مصطفى ناصف" منيع الجانب لا يدين إلا لمقتدر يتروى، لا يغرنّك أن يكون النّص أول اللقاء به داني القطوف، فإنّه في عمقه خبيئا... يحتاج النّص إلى حفر في طبقاته، كل هذا مؤدّاه أنّ النّص رمز وتلميح لا ظاهر وتصريح"(12)

فالنّص في أول تعامل معه يبدي امتلاكا لقارئه، ولكنّه في الحقيقة لا يبدي إلا القشرة الخارجية وما توحي به من أحادية المعنى، لذا فوظيفة التأويل هي الحفر في الأعماق للولوج إلى عالم النّص الخبيء الخفي.

وهذا الفهم للنّص عند "ناصف"، يقابله في الضفة الأخرى فكرة النّص البصلة عند "بارت" أو الترسبات النّصية عند "جاك ديردا" وحفريات "فوكو".

وهو بالتالي نص لا يحتمل دلالة نهائية وثابتة، وإنّما تبقى دلالة مؤجلة واحتمالية، والتأويل هو الآلية الوحيدة القادرة على استجلاء المحتمل.

وكما يقول "امبرتو ايكو": "أنّ الحقيقة (المعنى) محددة بأنّها ما لم يقل، أو ما قيل بشكل غامض، وينبغي فهمه فيما وراء أو تحت سطح النّص"[(13)] فالنّص إذن ثنائي الصبغة يجمع بين ظاهر وباطن، معلن ومُضمر، واضح وخفي، لذا يجب الحفر في طبقاته من خلال قشرته الأولى (البنية اللغوية) للوصول إلى الطبقات التحتية لمقاربة الحقيقة. ولا يخفى علينا أنّ للنّص حرمة على القارئ مراعاتها أثناء القيام بعملية التّأويل، وعليه استيعاب نظام النّص ليتمكّن من محاورته " فالنّص يحتاج لجهاد ومجاهدة لفهمه وخضوع وشعور بأنّك خادم لهذا النّص متواضع له ، هنا سيفتح النّص المجال لمحاورته وفهمه وتأويله"[(14)]

فهناك علاقة تفاعل بين الذّات والموضوع؛ علاقة جدل واستقصاء بحثا عن الممكنات الدّلالية المفتوحة كما يقول "ناصف": "علاقة المؤول بالنص إذن هي جدل العربي حول الإمكانات المفتوحة، أو حول الاختيار الواسع قبولا أو رفضا"[(15)]

فنجد "مصطفى ناصف" قد تبنّى مبدأ الحوار الفعّال والقراءة الخلاّقة مع النّصوص: أي الحفاظ على حرمة النّص المفتوح للتأويل اللامتناهي (المتعدد) بتعد القراءات، ولكن البعيد عن فوضى القراءة أو اللّعب الحر أو الرقص على الأجناب كما هو عند دعاة التفكيك.

5. حدود التأويل:

1.5. التأويل المغلق (الثابت):

التّأويل تقاسمه تياران: تيار يرى أنّ لكل قارئ الحق في فهم ما يريد من النّص ليستحيل إلى كائن هيولي (تعدّد القراءة)، وتيار يُعوّل على اللُّغة الثابتة القارة وعاملوا النّص معاملة الأشياء مسجونا في لغته "فالحقيقة الأولى عند كثير من النّاس هي الثبات، ولكن الحقيقة الأولى في التأويل هي الجدل"[16]. فالتّأويل حسبهم بحث عن مقصدية الكاتب أو ما فُهم من النّص بدلالة اللفظ على المعنى دون حفر في الأعماق أو تحت سطح النّص، دون حوار فعَّال أو مساءلة. وهذا النّوع من التّأويل فيه تضييق لمعاني النّص وبتر للحقيقة ،فحسب هانس غيورغ غادامير :" إذا أردنا إدراك النّص في مصداقية دلالته الأصليّة ، فينبغي رؤيته كتجلّي لحظة إبداعيّة و إعادة توظيفه داخل شموليّة السياق الرّوحي للمؤلف"[17] ، في حين يرى الدكتور "ناصف": "أنّنا نبحث عن حوار لا عن مقاصد كاتب من الكتاب. الحاضر جدل وأصوات لا صوت واحد. كل لحظة زمنية لا تحيا في خارج المحذوف والمساءلة، المحذوف والمساءلة يُكَوّنان عظمة اللّحظة الحاضرة، إنّ الخوف من المساءلة قد يُعَبّر عن نفسه: "يقولون لك ابحث عما قصده الكاتب، هؤلاء يدافعون عن الجمود، لكن التّأويل لا يخدم الجمود، يخدم القلق ويخدم الحرية، والحركة المستمرة"[18]

كما أنّ النّص ذو صبغة ثنائية "له دلالتان: دلالة اللّفظ على المعنى، ودلالة المعنى الذي دلّ اللفظ عليه على معنى آخر"[19] أي ينبغي توافق الجانبان (الظاهر والباطن) بإحكام القراءة الأولى الشارحة ثم الغوص في طبقات النّص، القراءة التأويلية المسؤولة.

إنّ الوقوف عند القراءة الأولى المحدودة يُعَطّل الفكر ويحمله على الخمول والجمود، كما أنّه يفقد النّص حيويته وحياته. أو البحث عن المعنى المقصود الذي أراده الكاتب.

وهذا ما رفضه الدكتور "مصطفى ناصف" عند دعاة المقصدية "مشكلة التأويل عند هيرش ليست ترجمة النّص القديم إلى لغة عصرية أو عبور المسافة بينهما، المشكلة في كلمة واحدة هي تقرير المعنى "التاريخي" المقصود"[20]

وهذا البحث في اتجاه واحد ليس من طبيعة الإنسان، "فالإنسان لا يرضى بالوضوح دائما، ولا يرضى بالخفاء دائما، لا يرضى بغير التردّد بينهما... التأويل هو مظهر الغوص في اللباب وترك القشور، ومظهر تجاوز المحسوس إلى غير المحسوس، والمعتاد إلى غير المعتاد. هذا فن المغامرة أو فن التأويل"[21] والتأويل حسب هذا التيار يلغي حرمة النّص ويحد من صيرورته ومواءمته للزمن المتواتر، في حين يؤمن "ناصف" بضرورة تعدّد التأويل بتعدّد أفق القراءات.

2.5. التأويل المفتوح (المتجدد):

إن كان دعاة المقصدية قد قلّلوا من فرص التّأويل، فدعاة التفكيكيّة يفتحون القراءة ويطلقون لها العنان، ويرون أنّ لكلّ قارئ الحق في فهم ما يريد من النّص، فتصبح السلطة للقارئ على حساب النّص المنهك والمرهق، وهي "فكرة تعود إلى التشبُّع بالمقولات التفكيكيّة التي تطلق العنان للقراءة المُتشظّيّة، وإفساحا لمغامرات القارئ في تجاوز النّص ذاته"[22] ويرون أنّ "النّص هو إذن نسيج مركب من إشارات وتعبيرات ودلالات متداخلة تستدعي التفكيك والعزل لفحص بنيتها وجذورها المتضاربة"[23] وهذا سعي إلى كسر منطق الثنائيات (دال، مدلول) فتنزلق الدوال دون مدلولات.

وهذا الدّفاع عن الإفراط في التأويل يتبعه المناصرون لخطوات "ديردا" التفكيكية، فهم يرون أنّهم قادرون على تخليص النّص من جموده وتحريكه، وإحياءه بعد كل قراءة جديدة.

فالقراءة لا حد لها والنّص هيولي، فيصل بهم المطاف إلى فوضى القراءة أو التأويل، وهذه الفلسفة تدفع التأويل إلى التيه والإفراط.

وبين هذين التيارين–التيار الذي يحد التأويل ويغلقه–والتيار الذي يتبنى تعدد القراءة دون حدود–نجد تيارا توفيقيا يتبنّى التأويل المعتدل، ويُمثله بعض السيمائيين المعاصرين مثل: "امبرتو ايكو" في كتبه المختلفة، وخاصة كتابه "حدود التأويل" وقد جعل للتأويل حدودا ممثلة في العلامات السّيمائية. وبالنسبة للقارئ الحداثيّ يمكنه التخلّص من خوفه من الوقوع في عبثية التأويل بالاستعانة بالنظريات الحديثة كنظريتي التلقي و التداولية ، فهذا الاتجاه الألسني" أعاد ضوابط التأويل فعصم المعنى من الشّذوذ، وحدّ من سلطة القارئ في إملاء أهوائه وميوله على النّص"[24]

و"مهما اختلفت التيارات التأويلية القديمة والحديثة فإنه ينبغي أن لا يغرب عن بال القارئ العربي والإسلامي المعاصر أن لكل تيار تأويلي مشروعه الفكري والسياسي الخاص به... والمهم أن يعي أنّ التأويل إذا لم يكن مستندا إلى مشروع فكري وسياسي فإنّه يكون مجرد مادة استهلاكية أو لهوا ولعبا يشغل عن الحياة الدنيا وعن الآخرة، فلنضع مشروعنا الفكريذ والسياسيّ حتى يكون تأويلنا مشروعا منزها عن العبث"[25]

وفي إطار المشروع العربي المنزّه عن العبث بحث "مصطفى ناصف" عن تأويل منسجم مع منظومتنا الفكرية والعقائدية، فكان التأويل الشامل الروحي أداته محاورة النصوص والتفاعل معها لمقاربة المعنى أو الحقيقة.

فما هو التأويل الروحي الشامل؟ وكيف قارب "مصطفى ناصف" المعنى من خلاله وحفظ للنّص حرمته؟

3.5. التّأويل الرّوحي الشّامل:

تأصّل الفعل التأويلي مع القرآن الكريم، من خلال البحث في المتشابه منه، والحوار والجدل العقلي الذي أثاره القرآن هو أساس قيام نظرية التأويل في الفكر الإسلامي، وعلى المفكر الإسلامي إعمال العقل والروح لمقاربة الحقيقة ومحاولة تمثلها، لأنّ الحقيقة لا يعلمها إلا الله "وما يعلم تأويله إلا الله"[(26)]

فتناول التّأويل ذلك الجانب المتشابه من القرآن الكريم، لأنّه يحتاج إلى كشف وإيضاح، غير أنّ الذي حدث؛ أنّ التأويل اتخذ مسارا آخر، حيث امتد نفوذه إلى ساحة المحكم أيضا، وكان ذلك على يد المتشدّدين من الفرق الإسلامية. هذا النّوع من التأويل المرفوض؛ لأنّه يخدم الفرقة و التوجهات الطائفيّة دون الوصول إلى الحقيقة المنشودة والفهم الصحيح للنّص القرآني ، فهو فاقد للمسئولية و" أصل خراب الدّين و الدّنيا إنّما هو التأويل الذي لم يرده الله و رسوله"[(27)] والنّص القرآني له حرمة فهو مقدّس وله خصوصيّة لا يقبل التأويلات الفاسدة و المردودة مهما كانت المسوغات.

"وهذه الفرق.... وجدت لمذهبها هذا مسوغات استدعت التأويل، لعل أول تلك المسوغات طبيعة النّص القرآنيّ ذاته، إذ القرآن حمّال أوجه، متجدّد بطبيعته بحكم إعجازه وكمال بلاغته، إذ انطلقوا من اعتبار النّص المقدّس نصا يدعو إلى التأويل ويحث عليه"[(28)] فالنّص القرآنيّ يحمل علامات وإشارات تفتح المجال أمام التّأويل المفتوح وتعدّد القراءات "النّص آيات بيّنات والبيان أشد الكلام احتمالا لضروب التفاسير وأصناف التأويل، والآيات علامات فائضة أي إشارات ورموز وعوالم دلالية فسيحة"[(29)]

ومخافة اتخاذ التأويل مسلكا انحرافيا بحجة أنّ القرآن الكريم يحثُّ على التأويل اللامحدود، هناك في تراثنا العربي الإسلامي من حدد أصولا للتأويل أو أصولا للفقه، فعلم

أصول الفقه "علم الحوار بين الوفاق والخلاف، بين التفرّد والانسجام، بين عبقرية الفهم وتأصيل التقاليد النّامية"[30]

وعليه فأصول الفقه هي حوار حول مشروعية التأويل ما يجوز استنباطه ومالا يجوز، حول عمل تأويلي مسؤول يحفظ للنّص حرمته وللقارئ تجدّد قراءاته وفهم النّص وفق قواعد وحدود تبعده عن العبثية واللاقراءة، وتقربه من المعنى المنسجم مع الإطار العام "لقد نشأت أصول الفقه لتحمي النّص من التضخم ولتعصمه من النزوة"[31]

وان كان هدف أصول الفقه هو حماية النّص، فهدف مصطفى ناصف هو حماية التأويل من مشكلاته لأنّ "مشكلة التأويل الأولى هي الحفاظ على التوازن، وإعطاء الفرصة للحياة المتغيرة والاعتراف بالإطار في وقت واحد"[32]

وللحفاظ على التوازن يجب اعتماد "التأويلية التي ارتضاها النّسق العربي الإسلاميّ مؤسسة على بلاغتي الارتداد الفعّال نحو المرجع المؤطّر: الدينيّ، والعقديّ، واللغويّ، والنّحويّ، والبلاغيّ، والتاريخيّ، والاجتماعيّ. وبلاغة الامتداد في اتجاه استقصاء المعنى وتكوينه"[33]

وبالتالي صهر العلاقة بين المادة والرّوح، اللّفظ والمعنى، الدّال والمدلول في إطار المرجع الذي تنتمي إليه مع موافقة "التركيبة التي تتمتع بها الكلمات، فالصّلة الروحية والسعي من أجل المعاش معنى واحد أي أن الرّوحي ليس هو تجاوز المادي أو العملي كما يذهب كثير من أتباع الثقافات الأخرى. وإنما هو طريقة في ممارسته"[34]

يدعونا الدكتور "مصطفى ناصف" إلى التأويل المسؤول الجامع بين المادة والروح، الذي تتداخل فيه "متعة الحواس، ومتعة الرّوح بطرق مثيرة"[35] لأنّ القرآن الكريم حرص على غراسة ما هو روحي في قلب المادي ولم يلغه ولم يعبث بكيانه "ولذلك كانت كل حركة

يراد بها العبث بهذا الرباط المتوازن موضع إنكار المادة والجسد والمحسوس داخل في تركيبه عناصر أخرى"[36]

ولقد رأى "ناصف" أنّ هناك من دخل على القرآن بثقافة غريبة متجاهلا ما في بنية الكلمات القرآنية من تقديس الحياة والعمل على التأليف والتوحيد، وأنّ قوام القرآن هو الغبطة بالحياة.

كما أنّ التّأويل المنشود هو الذي يأخذ طابعا ملائما لروح العصر لثقافة روحية أصيلة، ونحن في حاجة ماسة لتجديد التفكير الديني (من خلال مواكبة سير الفكر) وعلينا الاستفادة من الفكر الإنساني الحديث المفتوح على كل المشارب الفلسفية والمعرفية من أجل الوصول إلى ثقافة إسلامية أصلية، والكشف عن العناصر التي تمكّننا من مواجهة تيارات العصر بطريقة فكرية إيجابية وخلق ثقافة جديدة.

6. قراءة تأويلية روحية لرسالة الغفران:

يعد "مصطفى ناصف" من النقاد الذين جمعوا بين التنظير والتطبيق في المجال النقدي.

ففي كتابه "محاورات مع النثر العربي" أعاد قراءة بعض النّصوص العربية التراثية، وفق منهجه الخاص في التأويل، معتمدا الحوار الفعّال، والتعاطف، والمساءلة كآليات معينة على الغوص في أعماق النّص بحثا عن المعاني الخفيّة.

واعتمد على الحوار الفعّال بين النّص وبين المؤول، حتى يخرج من صمته ويبوح بمكنوناته. ومن النّصوص التي حاورها "رسالة الغفران"[*] لأبي العلاء المعري، محاولا أن

[*] رسالة الغفران من الرسائل الأدبية المؤلفة في أخريات الربع الأول من القرن الخامس الهجري بمعرة النعمان لمؤلفها أبو العلاء المعري التنوخي (363هـ-449هـ)، وهي في ظاهرها رد على رسالة علي بن

يقرأ "وجه تحديها لنا واستجابتها لبعض مطالبنا نحن الآن"[37] أي أنّه لا يريد الوقوف عند التاريخ بل تجاوزه لأن "كل تأويل مبناه تجاوز التاريخ"[38]

كما أنّه يرى أنّ "أبا العلاء" كان يدعو القرّاء إلى التأويل من خلال كلام له ظاهر وباطن "حقا أنّ أبا العلاء أخذه روح الظرف التي يتغنى بها الشعراء، لكنّه أراد، في أكبر الظن، أن ينبّه إلى شيء آخر، أبو العلاء يثير قضية التأويل، وربما زعمنا أن لكلام أبي العلاء ظاهرا وباطنا"[39]

وعند مقاربة "ناصف" للرسالة، يتبنى المساءلة كآلية في محاورة النّص وإثارة الحيرة والقلق "هل أراد أبو العلاء من العودة إلى مسائل اللغة والنّحو أن يذكر بعض النّاس بأنّهم يسرفون على أنفسهم في طلب اللّذّات. هل أراد من وراء القضايا الأدبية والشعر أن يعيد النظر في مفهوم المادي. هل أدخل الشعر في الفردوس ليعطي طابعا عربيا يصل بين مجد الدنيا ومجد الآخرة. هل أدخل الشعر مدخلا يدعو إلى إعادة فهمه وإعادة فهم العقل العربي جملة"[40]

وإن كان هم "المعري" إعادة فهم العقل العربي جملة، فإنّ هم "ناصف" فهم عقل المعري من خلال تأويل كلماته.

ونضرب مثالا عن ذلك قول المعري: "خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها، فإنّ هنا الشجر يعرف بشجر الحور. فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة أو ما شاء الله من الثمار، فيكسره، فتخرج منها جارية حوراء عيناء، تبرق لحسنها حوريات الجنان"[41] ويرى "ناصف" أنّ "المعري" قد حول الكلمات إلى كائنات، فالفاكهة نساء والنّساء فاكهة، والكلمات تنطوي

منصور بن طلب الحلبي "ابن قارح"، وفي باطنها تعبير إنساني ممزوج بعلاقات معقدة مع القدرة الإلهية والاستطاعة الإنسانية في عالم الشعر واللغة...

على قصص وخيال، وتحمل بقايا قديمة من اعتقادات الإنسان [42] كما يرى أن أبا العلاء فنّان في معالجة الكلمات "ويمرون من أوز الجنّة"[43] وكلمة الأوز دلالة على جواري الجنّة، تضفي عليهن حرية وانطلاقا ونشاطا.

أبو العلاء يجلي القدرات الكامنة في الكائنات، بزعمه أنّها في الجنّة تسفر عن مواهبها وتذوب بعضها في بعض، ذوبان الكلمات في السياق والنظم لخلق الانسجام والتناغم.

يرى "ناصف" أنّ أبا العلاء المعري فنان في نسج الكلمات الغريب منها والقريب، لبيان ما في نفس الإنسان من اختلالات واختلافات وتناقضات.

وحتى استعماله للصور البيانية، والمحسنات البديعية مختلف عما استعمله غيره، ويقف بنا عند هذا النّص "من عبد ودّا لم يجد عند الله وُدا، والدسر لمعظم نسر، وصاحب سواع ليس بواع، ما اغثاهم يغوث، بل عوّق خيرهم يعوق. وأذلت العرى–وهي ذليلة–من جعلها من الطاغوت، ولا تبت القوم اللات"

يتساءل "ناصف" إن كان حدود القراءة تكمن في التجانس بين الكلمات، أليست أبعد من ذلك؟ هل الجناس في هذه الكلمات لا يتبين الإنسان إذا عبد الأصنام، هل الأصنام لا تعدو أن تكون عبادة لبعض الكلمات؟ في القرآن الكريم الأصنام ليست إلا أسماء أي كلمات، أبو العلاء من خلال الجناس يجعل التعادل الصوتي لكلمتين دخيلا عليها، ويرمز لهذا الاشتباك إلى أسلوب من أساليب الأساطير كان الاشتباك أو الاشتباه الصوتي نظير علاقات أخرى في الحياة غير مفهومة[44]

ويرى "ناصف" أن جناس أبي العلاء وتعامله مع الكلمات فريد لا يشبه غيره. ومن خلال قراءة "ناصف" لأبي العلاء" قراءة تأويلية يمكننا القول أنّ أبا العلاء في اختياره

للنّصوص، والشخصيات واتصاله بها تأويلات وتخريجات تبرز قراءة ثانية وفهما مختلفا أما قراءة "ناصف" فتفتح الأفق أمام قراءات أخرى.

7. خاتمة:

التأويل رياضة عقلية تحتاج صبرا، وتمرسا، وفهما للحياة وأغوارها. وهو تأمّل طويل للنّصوص بحثا عن مكنوناتها. ولا يأتي لنا المعنى إلا بحوار فعّال ومتفاعل مع النّص، يكون دورنا الأساسي فيه هو إثارة السؤال.

وحتى يكون التأويل فعّالا، يجب احترام حدود وشروط عند مساءلة النصوص، فنقرأ النص من خلال تكامل تفاعل بين الظاهر والباطن، بين المادي والروحي، بتكامل العلاقة بين الدال والمدلول وفي إطار سياقه ونسقه.

ويجب علينا حفظ حرمة النّص فلا نرهقه، ولا نحمله مالا يحتمل، فالباحث أو القارئ صديق النّص يحاوره في لحظة إشراق.

ولقد أفرزت هذه القراءة النتائج الآتية:

- التأويل يوتسّم المعنى ويتحرّاه، ويحاول صرف اللفظ عن معناه الظاهر السّطحي إلى معنى آخر غير محتمل مع مراعاة الخصوصية اللغوية.
- عند ممارسة "مصطفى ناصف" للتأويل، نجده يلج أولا من باب التفسير ويعتبره العتبة الأولى للوصول إلى الفهم، لأنّ التّفسير خاص بالألفاظ ومرادفاتها، أما التأويل فهو أوسع، من خلال حفره في باطن النّص بحثا عن المعنى الخفي.
- النّص عنده منيع الجانب لا يبدي إلاّ القشرة الخارجية، وعلى القارئ ولوج عالمه الخبيء باستنطاق رموزه وتلميحاته، وبالتالي فهو لا يحتمل دلالة نهائية وثابتة، وإنّما تبقى دلالة مؤجلة ولا نهائية.

- تقاسم التأويل تياران، تيار يعوّل على اللغة الثابتة القارة، وعامل النّص معاملة الأشياء مسجونا في لغته.

وتيار يرى أنّ لكل قارئ الحق في فهم ما يريد من النّص وأطلق العنان للقراءة المتشظية متشبعا المقولات التفكيكية.

- التأويل المعتدل، تبنّى حدودا للتأويل ومعايير يهتدي بها المؤوّل، مركزا على العلامة اللامحدودة ودلالتها، ومن زعمائه "امبرتو ايكو".
- التأويل الرّوحي الشامل تبنّاه "مصطفى ناصف" رأى أنّه جامع بين المادة والروح، محافظ على حرمة النّص الذي يحاول استنطاقه من خلال حدود، تعطي الفرصة لروح العصر مع الاعتراف بالمرجع الذي ينتمي إليه، مع عدم تجاوز الثنائيات (المادة، الروح)، و(الدال، المدلول)
- عند ممارسة ناصف للتّأويل لم يهمل الجانب التطبيقي، فكانت القراءة الثانية "لرسالة الغفران" مختلفة عن سابقيه.

ورأى أنّ "المعري" في رسالته يطالب القارئ بالغوص في باطن العبارات للوصول إلى معان وحقائق متجددة.

8. الهوامش:

(1)إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، مادة أول

(2)عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمد رشيد رضا، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1988، ص203

(3)السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، القاهرة، 1939، ص52

(4)مصطفى ناصف، نظرية التأويل، ط1، النادي الثقافي الأدبي، جدة، 2000، ص90

(5)المصدرنفسه، ص78

(6)مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2004، ص08

(7)مصطفى ناصف، نظرية التأويل، ص173.

(8)مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص21

(9)مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد الأدبي، دار الأندلس، د.ت، (د. ط)، ص66

(10)مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة، الكويت، 2000، ص179

(11)مصطفى ناصف، نظرية التأويل، ص203

(12)مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، ص179

(13)امبرتو إيكو، التأويل والتأويل المفرط، تر: ناصر الحلواني، مركز الإنماء الحضاري، ص53

(14)عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النّقدي المعاصر: مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، مصر، الهيئة العامة للكتاب،2005، ص246.

(15)مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص9

(16)مصطفى ناصف، نظرية التأويل، ص174

(17)هانس غيورغ غادامير، فلسفة التّأويل–الأصول، المبادئ، الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف +منشورات الضفاف، الطبعة الثالثة،2017، ص43)

(18)مصطفى ناصف،نظرية التأويل، ص172

(19)عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص341

(20)مصطفى ناصف، نظرية التأويل، ص41

(21)مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص10

[22]سعيدة خنصالي، امبرتو ايكو في نقد التأويل المضاعف، منشورات الاختلاف+ منشورات الضفاف، 2015، ص206

[23]محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، 2002، ص190

[24]عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه–دراسة في سلطة النّص–، عالم المعرفة، الكويت، 2005، ص 97

[25]محمد مفتاح، التلقي والتأويل، ط1، المركز الثقافي العربي، 1994، ص144

[26]آل عمران، الآية 07

[27]أحمد عطية الزهراني، ابن القيم الجوزية بين التأويل والتفويض، كلية الشريعة الإسلاميّة، المملكة العربية السعودية،1976، ص321.

[28]محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ط9، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص181.

[29] علي حرب، الحقيقة والتأويل (قراءات تأويلية في الثقافة العربية)، ط2، دار التنوير، بيروت، 1995، ص18

[30]مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص171

[31]مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص248

[32]مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص17

[33] محمد بازي، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ط1، منشورات ضفاف+ منشورات الاختلاف، 2015، ص 25.

[34] مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص 26.

[35] المصدرنفسه، الصفحة نفسها.

[36] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[37] مصطفى ناصف، محاورات مع النثر الغربي، عالم المعرفة، فبراير، 1997، ص 8.

(38) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(39) المصدر نفسه، ص 7.

(40) المصدر نفسه، ص 208.

(41) المصدرنفسه، ص 209.

(42) ينظر نفس المصدر، الصفحة نفسها

(43) المصدر نفسه، ص 210

(44) ينظر نفس المصدر، ص 210- 211.

9. قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

- **القرآن الكريم**

1. مصطفى ناصف، نظرية التأويل، ط1، النادي الثقافي الأدبي، جدة، 2000.
2. مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2004.
3. مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد الأدبي، دار الأندلس، د.ت، (د. ط).
4. مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة، الكويت، 2000.
5. مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، الكويت، 1995.
6. مصطفى ناصف، محاورات مع النثر الغربي، عالم المعرفة، فبراير، 1997.

ثانيا: المراجع

1. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، مادة أول.
2. أحمد عطية الزهراني، ابن القيم الجوزية بين التأويل والتفويض، كلية الشريعة الإسلاميّة، المملكة العربية السعودية، 1976.

3. السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، القاهرة، 1939.
4. امبرتو إيكو، التأويل والتأويل المفرط، تر: ناصر الحلواني، مركز الإنماء الحضاري.
5. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمد رشيد رضا، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1988.
6. عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النّقدي المعاصر: مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، مصر، الهيئة العامة للكتاب،2005.
7. عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه–دراسة في سلطة النّص–، عالم المعرفة، الكويت، 2005.
8. علي حرب، الحقيقة والتأويل (قراءات تأويلية في الثقافة العربية)، ط2، دار التنوير، بيروت، 1995، ص18
9. سعيدة خنصالي، امبرتو ايكو في نقد التأويل المضاعف، منشورات الاختلاف+ منشورات الضفاف، 2015.
10. محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، 2002.
11. محمد بازي، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النّصوص والخطابات، ط1، منشورات ضفاف+ منشورات الاختلاف، 2015، ص 25.
12. محمد مفتاح، التلقي والتأويل، ط1، المركز الثقافي العربي، 1994.
13. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ط9، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.
14. هانس غيورغ غادامير، فلسفة التّأويل–الأصول، المبادئ، الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف +منشورات الضفاف، الطبعة الثالثة، 2017.